(أحمد شوقي)
١٨٦٩* - ١٩٣٢

توطئة :

يلاحظ الدارس للشعراء المعتدلين ، الكلاسيكيين الجدد - وضوح شخصياتهم شعرهم ، وضوحاً ، يكاد يشكل ظاهرة متميزة في تاريخ الأدب الحديث ، شأنهم في شأن رائدهم الأول - محمود سامي البارودي - فقد لمسنا في شعر حافظ والرصا يعكس شخصيتهما ، ويُجسد حياتيهما ، أشد ما يكون التجسيد .

وربما يفوق هذا الوضوح لدى أحمد شوقي ، ما وجدناه لدى حافظ والرص وإذا شئنا أن نُطبق منهجنا النقدي ، الذي يُحتم علينا دراسة شعر الشعراء في تأثره بالبي السياسية والاجتماعية والدينية ، كما ندرسه في ظل ما ينتهي اليه فهمنا لشخصياتهم عواطفهاومشاعرها وثقافتها وفهمهما لطبيعة المجتمع والحضارة وطرائق الحكم ذلك مِمّا يتصل بهم ، ويؤثر فيهم ، وينتهي بعد ذلك إلى ظهوره في شعرهم ، إذا شئنا ، توجّب علينا أن ندرس تأثير كل هذه العوامل في شعر الشاعر ليكون حكمنا عليه شعره قريباً من الصواب ، بعيداً عن الزيف .

والواقع أن شوقي وشعره ، قد تأثرا تأثراًبعيداً بما حولهما ، من ظروف وأحد وهي ظروف مُتقلبة ، وأحداث كثيرة ، قلما صادفت شاعراً مثلما صادفت (شوقي) و ذلك عندنا سببان :

الأول : أن عصر شوقي قد نهض بالكثير من التحولات والثورات ، ولم يقف الش بعيداً عنها ، بحكم موقعه الاجتماعي المتميز ، وتطلعاته وثقافته ، فقدر ما أعانته الظروف على أن يعيش في بُحبوحة من الرخاء والدعة ، فقد فاجأته أعاصيرها بما أفقد عزه وجاهه ومكانه ، فعاش سنوات الغربة بعيداً عن وطنه ، يُكابد أسى الحنين ، والم الغربة ، وإذا بقصور الأندلس التي ضاعت من أهلها ، تذكره بما فقد من عز وحُرم

نعيم في قصور إسماعيل وتوفيق وعباس . ولذلك سالت قصائده غناءً وحنيناً وتذكراً ، ولم يعد بعد ذلك يناغي بلابل تلك القصور ، بل أضطر اضطراراً إلى أن يحيا ما بقي له من سني حياته ، مع صفوف الشعب يشاركه آلامه ويُشاطره آماله .

وليس هذا فحسب ، فقد أثرّ في شعر شوقي ، وانطبع كلّ ما كانت تتطلع إليه أمته وشعبه من ثورات سياسية وتطلعات اجتماعية ، وما استدعاه أدب أمّته ، شعره ونثره من تطورات ، فكان الشاعر يستجيب لكل ذلك . ،

واتسع شعره للعديد من الفنون الأدبية الجديدة ، والموضوعات الحديثة والمعاني المبتكرة .

والسبب الثاني : يتعلق بشخصه وطبيعة نفسه واتجاهات ثقافته ، فقد كان شوقي كثير الآمال ، شديد التطلع ، عميق الإحساس ، وكان فوق ذلك يمتلك ذكاءً حاداً ، ومواهب مختلفة . وساعده على ذلك كله نشأته وحياته في قصور حكام مصر التي هيأت له كل ما كانت تصبو اليه نفسه .

وتأسيساً على هذين السببين ، صار لزاماً علينا أن نُشير إلى تلك الأحداث والتطورات بشيء من الإيجاز .

رحلة الحياة وروافد الثقافة في القصر :

ولد أحمد شوقي في قصر الخديوي إسماعيل ، حيث الجاه والغنى والتطلع ، بعيداً عمّا كابده كثير من شعراء جيله ، ومنهم كما أسلفنا ـ الرصافي وحافظ .

وفي هذه البيئة ، ارتبط الشاعر بالأمراء قبل أن يصبح أمير الشعراء .

وقد توجه في سن مبكرة إلى المدارس الخاصة بعد أن ضاق بالكتاب التي كانت تعنى بالدراسة الدينية ، ثم أُلحق بعدّ انتهاء دراسته الأولية بمدرسة الحقوق ، مع من أُلحق من أبناء الطبقة العالية .

وينهي دراسته فيها بقسم الترجمة ، وقد كفل له هذا أتقان اللغة الفرنسية ، وبذلك يكون الشاعر قد تعلم العربية والتركية ، في مطلع شبابه ، بفعل حياته في القصر وأتقن

الفرنسية بفضل دراسته بقسم الترجمة في المدرسة الحقوق .

وفي هذه الفترة تفتحت شاعريته ، لتكون في خدمة ولي نعمته توفيق
موظفاً في القصر . وقد أتاح له ذلك ، إكمال دراسته في فرنسا ، فشدّ الرحال
نفقة القصر ، واختار مدرسة الحقوق في مدينة مونبيليه ، فقضى فيها سنتين ، ثم
بباريس ، وقضى فيها سنتين أخريين ، وقفل راجعاً إلى حيث ينتظره العز والنعيم

وقد خلّدت مرحلة الدراسة في فرنسا ملكاته الفطرية ، إذ وقفته على مظا
الغربيّة ، وملأت عينه بمفاتنها المختلفة ، كما ملأت نفسه بما فيها من ثقافات
على العديد من الفنون والآداب ، وعلى الخصوص المسرح والشعر على لسان
وكان قد قرأ للافونتين ، وقصد دور الأوبرا ، وشاهد المسرحيات ، واستقر في
آنئذ أن يجري شعره في روافدها ، سداً للنقص الذي خلّفه أدبنا العربي في
المختلفة .

وحين عاد الشاعر إلى مصر ، كان (عباس) قد خلف والده (توفيقا) بعد
فاصطفاه الشاعر ولياً لنعمته ، وقام على خدمته رئيساً لقسم الترجمة في القصر ، و
به أن يخلُص له ، ويُدافع عنه ويخاصم خصومه من مثل رئيس الوزراء (رياض
هاجمه ببعض قصائده ، كما خاصم اللورد (كرومر) وهجاه انتصاراً لولي نعمته
الشهيرة التي يفتتحها بقوله :

أيامكم أم عهد اسماعيل أم أنت فرعون يسوس

ويأليت الشاعر يكتفي بمهاجمة الانكليز والظالمين معهم ، فقد دفعه ولا
إسماعيل إلى مهاجمة الشعب ممثلاً بزعيمه (عرابي) حين عاد من منفاه ، فاستقبله
بهجائه يقول فيها:

صغار في الذهاب وفي الاياب أهذا كل شأنك يا

وهذا الولاء الشديد للخديوي قد حدد في رأينا موقع الشاعر الاجتماعي ، إذ صار منذ عاد من فرنسا لسان حال الخديوي والمعبر عن سياسته . ومن هنا كانت مواقفه تجاه الانكليز والمصريين أيضاً تخضع لسياسة الخديوي وتتأثر بها سلباً وإيجاباً . ومن هنا فقد أصبح شوقي أسيراً لمولاه ، وصار شعره تجسيداً لِسياسة القصر وحياة الخديوي ومن معه ، يُصور حياتهم فيه وما فيها من عبث ولهو ، وما تموج به من صور الرقص والغناء ، وما تشتبك فيه من علاقات ، وتُحاك من دسائس ومُؤامرات على الشعب ومصالحه وعلى الوطن وحريته ، كل ذلك والشاعر يغض الطرف عمّا يراه .

ولم تكن هذه الحياة المُترفة هي الوحيدة التي يستظل بها شوقي والتي عبر عنها بقوله :

رمضان ولّى هاتها يا ساقي مشتاقةً تسعى إلى مشتاق

وبقوله يصف الخمرة :

حف كأسها الحب فهي فضة ذهب

ولا يكتفي بما عبرّ به عن خمرته ، فقد راح يعبر عن لذة وصاله فيقول :

ذقت منها حلواً ومراً وكانت لذة العشق في اختلاف المذائق
حملتني ما شئت في الحب إلاّ حادث الصب أو بلاء الفراق

فقد كانت له صورة أُخرى مغايرة في القصر ، يبدو فيها مسلماً ومؤمناً أشد ما يكون الإيمان عمقاً في نفسه ، فقد مضى يكتب أعظم مدائحه النبوية ، ويدافع عن حوض الخلافة الإسلامية ، ويهنئ السلطان العثماني بانتصاراته على الأوربيين المارقين ويبشره بالفتح المبين .

فشوقي الذي عبرّ عن حبه وعن خمرته في الأبيات السابقة ، هو الذي نظم همزيته

في المنفى : ١٩١٥ـ ١٩١٩

لقد كان شوقي وفياً كلّ الوفاء لإسماعيل ولآله من بعده ، إذ لم ينسَ ما أنعموا عليه طوال ربع قرن أو يزيد . وحين عزل الانكليز عباساً ، وأحلّوا مكانه (حسين كامل) كان شوقي في مقدمة الذين أُطيح بهم ، فاختار الأندلس مكاناً لنفيه ، ولكن ما إن حل بها ، حتى ضاق صدره ، وخفق فؤاده حنيناً إلى مصر ، ورُبما شعر منذ أن حطت قدماه على أرض الأندلس أنه قد حيلَ بينه وبين عشه الذهبي ، الذي غادره ، فغذى ذلك الشعور ، ألمه . واستحال نغماً حزيناً يصبغ شعره .

وإذا كان النفي قد استبدل آمال شوقي بآلامه ، وأفراحه بأحزانه ، وطموحاته بيسرابه، فإنه قد حقق للشعر ما أثراه موضوعاً وفناً وصدقاً . فقد كانت قصائده في مرحلة القصر وقفاً على موضوعات مُعينة ، خصوصاً تلك التي تخص الخديوي وآله وقصره ، وكانت مُقيدة بما ينسجم مع مصالحها وأوضاعها ، أمّا الآن فقد فك هذا القيد ، وأطلق شعر الشاعر من عِقاله ، كما مُنحت الحرية التي تمتع بها الشاعر قصيدته عمقاً وصدقاً ، وفتحت لشعره باباً جديداً لموضوع القصيدة ومعانيها وتجربته فيها ، ويكفي كسباً للشعر، أن (شوقي) قد تحوّل في قصائده التاريخية إلى تأريخنا العربي الإسلامي ، يستلهمه ويستنبط منه المعاني والأفكار ويُصور فيه عظمة العرب والمسلمين . وما كان لهم من أمجاد وما تركوا من آثار تشهد بعظمتهم وتفوقهم .

وهكذا راح شوقي يبعث أنغامه الحزينة في قصائد الحنين والغربة ، أو يصف ربوع الأندلس ويُحيي آثارها ، ويُصور معالمها ، ويُجسد عظمة الذين تركوا بصماتهم عليها . وراح يستلهم قصائد أبن زيدون والبحتري وغيرهما ، ليغذي بها ما يؤكد استقلال شخصيته الوطنية والقومية . وكأنما كانت فترة مكوثه في المنفى تمهيداً لانتمائه إلى الوطن وعودته إلى أحضان الشعب ، وتحسسه لمشاكلهم ، وتلبية حاجاتهم ، وهكذا كان منذ أن حطت قدماه أرض مصر بعدَ العودة اليها من المنفى .

وكان للحرية التي منحتها إياه فترة المنفى هذه ، الفضل في عطائه الفني ، وتعميق

الإسلام) وهيَ أرجوزة تعليمية، أرخ فيها تاريخ العرب، حتى نهاية العصر العباسي
كتب مسرحيته النثرية الوحيدة (أميرة الأندلس).

ما بعد المنفى ١٩١٩ـ ١٩٣٢

عاد شوقي من منفاه بالأندلس، وعادت معه حريته التي فقدها في قصر
وعباس وكان أول قصيدة قالها بحق وطنه، بعنوان (بعدَ المنفى) وقد أعلن فيها
الدافئ ومشاعره العميقة فقال:

ويـاوطنـي لقيتـك بعـد يـأس كـأنـي قـد لقـيـت بـك الـ
أديـر الـيـك قـبـل الـبـيـت وجـهـي إذا فـهـت الـشـهـادة والـ

وفي القصيدة، يتحسّس هموم الشعب، فيتحدث عن مشاكل التموين
التجار، وفيها تحوّل خطير واضح في موضوع القصيدة الشوقية.

وتتوالى قصائده الموضوعية، سياسية واجتماعية وتربوية وخُلقية، حتى
أشبه بقصائد المناسبات. وهيَ في الحق لا تبتعد عن هذه الروح.

وإذا كان موضوع هذه القصائد قد سقط كثير منه في وهاد التقريرية والمباشرة
لا عمق فيه بسبب طبيعته الموضوعية، إلا أن المبدأ الذي يقوم عليه موضوع تلك القصائد
ينتمي إلى واقعية صحيحة، تتصل بحاجة الأمّة، وتُلبي آمال الجمهور، وتلتقي
عواطف الناس فتُجسد طموحاتهم، وتصور تطلعاتهم، وتعبر عمّا يختلج في نفوسهم
أماني وطنية. ومقاصد اجتماعية ومعانٍ تربوية. وهكذا راح شوقي يدلي بدلوه مع
حافظ والرصافي والزهاوي والجواهري، وغيرهم مِمّن استمدوا موضوعاتهم من
الناس، وحاجات الجمهور.

وسارت قصائده في هذا التيار، فإذا هو ينقد المشاريع الاستثمارية التي تحط
كرامة بلده. وحين يرى أحزاب الأ

وطنية . وراح يؤلف الأناشيد الوطنية ليُحمس الشباب ويستنفر وطنيتهم . وتسابقت صحف إلى نشر قصائده ، وتسابق معها أبناء الشعب ليقرأ ما ينظمه الشاعر العائد إلى رض الوطن .

ولم تقف جهود شوقي الشعرية في تلك الفترة على التعبير عن حاجات الشعب مصري وتُجسد أمانيه ، وإنما تجاوزتها إلى الأقطار العربية الأخرى ، يُغني لها أناشيد نصر ، وينشد أغاني الحماسة ، فيفرح لفرحها ، ويبأس لأساها ، فحين ضُربت دمشق مدافع الفرنسيين . نظم قصيدته ألتي ألقاها في المجمع العلمي العربي فيقول :

قم ناج جلق وأنشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداثٌ وأزمان

ومِمّا ورد فيها :

لولا دمشقٍ لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغدان

وشوقي في قصائده الوطنية بعيد العمق ، واضح الاتجاه والأبعاد ، دقيق النظر في ما يجرى في أمته وحول أمته ، لذلك كان يُلبِي ما تضمره الأمة من مشاعر وأحاسيس ، وما تنادي به من أهداف وشعارات ، وما تحتاج اليه في طرد الغزاة وتوحيد الصفوف فراح في شعره يؤكد أماني الشعب ويُجسد أحلامهم في الوحدة والنضال فيقول :

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحمٍ ونحن في الجرح والآلام إخوان
بنو سورية أطرحوا الأماني وألقوا عنكم الأحلام ألفوا
نصحت ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا في الهم شرق
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق
وللأوطان في دم كل حر يدٌ سلفت ودينٌ مستحق

تلك هيَ أحلام السوريين وكل العرب ، الوحدة والنضال والتفاني والبذل .